الوفاء للوطن الصغير

محمد الداهي

اقترن اسم حسن بحراوي بالنقد لصولته وجولته في مناحيه وأقاصيه عقودا من الزمن. وإن كان السرد حاضرا فيما كان يكتبه من بورتريهات وشهادات عن أعلام الثقافة المغربية على وجه الخصوص، لم يتفرغ له إلا في السنوات الأخيرة، مكرسا له ثلاث روايات متقاربة زمنيا (النمر الفيتنامي 2016، بنات ونعناع 2017، عودة المرحوم 2019). أخصص هذا المقال لعمله الأخير(1) مركزا على بنية السردية، وعلى موضوعه الرئيس الذي يحوم حول طهرانية المناضل والشاعر حماد، وعفته، وسمو أخلاقه، وفضله عن أنداده ومجايليه. يثير هذا العمل أيضا إشكالا على مستوى تجنيسه بالنظر إلى مؤشراته النصية من جهة، وإلى خلفيات القارئ المعرفية من جهة ثانية. يصعب أن نغلب كفة قراءة على حساب أخرى بدعوى أنها أكثر ملاءمة وإفادة من غيرها. فأية قراءة ممكنة- أيا كان مستواها وأداؤها، وسواء أأخطأ سهمها الهدف أم أصابه - تكتسب مشروعيتها من الطريقة التي اتبعتها للوصول إلى نتائج مناسبة. وفي هذا الصدد، قد يُتعامل مع حياة حماد بصفتها عملا تخييليا، وقد تُقارب من زاوية أخرى باعتبارها عملا سيريا مستوحى من صميم الواقع. وتؤدي- في هذا الصدد- خلفيات القارئ الثقافية والمعرفية دورا في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى، وفي الاستئناس بمعاييرها ومقوماتها في مقاربة العمل وتجنيسه.

1-جنسية المؤلِّف

رغم أن حسن بحراوي طويل الباع في النقد، لم يثبت على غرة عمله " عودة المرحوم" أي مؤشر يجلي جنسيته أو يوحي بها. تقصد عدم وضعه في خانة جنسية محددة متيحا بذلك هامشا رحبا للقارئ ليجنسه وفق خلفياته المعرفية وانطباعاته وتأويلاته الشخصية. أسهمت كلمة ظهر الغلاف في استجلاء دلالة العنوان وتوضيحها. يعاود السارد شبح صديقه حماد أو ظله بعد رحيله زهاء أربعة عقود من الزمن. يقتحم- دون سائر الخلق- دائرته الخاصة أو حميميته ليستطلع ما جد فيها من أخبار، ويكشف أسرارها وخفاياها. أضحت عودة المرحوم بالنسبة إليه دينا ينبغي له أن يوفي به بما يضاهي قيمته ورمزيته انسجاما مع المثل السائر "وعد الحر دين عليه". ولذا ارتأى أن يسترجع ما عاشاه من تجارب، وما قاساه من محن، ويطلعه على ما طرأ في المجتمع من مستجدات بعد سنوات من غيابه. سعى السارد- بهذا الصنيع- أن يعيد تشكيل هوية حماد ويعطي معنى لماضيه الشخصي بتخليد أثره في السرد، وتحويل انكساره في الحياة إلى انتصار عليها.

وهكذا توحي كلمة ظهر الغلاف بأن المشروع السردي يهم تجربة المرحوم حماد في الحياة. وهو ما يتأكد منه القارئ تدرجيا بولوجه في داخل العمل، إذ يتضح له أنه يدور حول سيرة حماد، مما يطرح أكثر من سؤال حول هوية هذه الشخصية . أهي حقيقية أم خيالية. كل جواب يحتمل إعادة تجنيس العمل بالنظر إلى معايير ومقاييس محددة. وفي هذا الصدد، قد تنطلي الحيلة التي دبرها أولغانغ هوخمير على القارئ معتقدا أن سيرة "السيد أندريو ماربو" مستوحاة من صلب الواقع، في حين هي ضرب من الخيال. وما يقوي هذا الاعتقاد لديه أن الكاتب دعم سيرته بالوثائق الشخصية للتدليل على صحة المعلومات

ومطابقتها للواقع. وفاجأ أولغانغ هونخيمر النقاد بأن عمله من صنع الخيال أملته الصناعة الفنية. " محكي حياة شخص خيالي مشخص كما لو كان مماثلا لسيرته التاريخية"(2). ما يحير قارئ " عودة المرحوم" -في هذا السياق- هو استرجاع حياته دون الإتيان بالحجج التي تقتضيها " وظيفة الشهادة". وهو ما يجعل القارئ يخرق الشفرة السيرية معتبرا إياه عملا روائيا. لكن فئة من القراء- بحكم خلفياتها المعرفية- قد تنزاح بالمؤشر من التخييل إلى السيرة بدعوى أن حمادا شخصية واقعية جمعته بالسارد علاقة حميمة في فترة من الزمن قبل أن تختطفه يد المنون وهو في عنفوان شبابه.

سعى السارد- باستعادة حياة المرحوم- إلى إعادة تشكيل هويته السردية وهويته الشخصية أيضا على نحو يتقاطع فيه السيري والسيرذاتي، والحميمي والمشترك، وتتشابك فيه الحياتان الخاصة والعامة. وهو بهذا الصنيع يتخذ- أسوة بعبدالله العروي في أوراق(3) -المترجم له رمزا لجايليه الذين عركتهم الحياة، وحنكتهم التجارب الصعبة- تطلعا إلى أفق جديد ينعمون فيه بالعيش الكريم.

2- سيرة حماد

من أين يبدأ السارد في استجماع خيوط سيرة حماد؟ تحتاج القطع المتناثرة من إعادة وضعها في مواضعها المناسبة بسبب " المفارقات الزمنية". وبتوغلنا في سيرة حماد نتأكد - في مواضع متباعدة- من سنة ولادته (1949) وسنة وفاته (1976). يبدو أن ما استأثر باهتمام السارد أكثر هو الجانب الأدبي (الفكري) الذي اختمر بعد حصول حماد على شهادة الباكلوريا من ثانوية لحلو المعربة بالدار البيضاء والتحاقه بالمدرسة العليا للأساتذة بفاس. ورغم معاناة أسرته من الفقر المدقع، لم يؤثر الالتحاق بمدرسة المعلمين، بل ألح على مواصلة الدراسة حرصا على نيل منصب أحسن، وسعيا إلى تطوير قريحته الشعرية. كانت-

وقتئذ- ظهر المهراز تستقطب صفوة من الأساتذة الأكفاء الذين ساهموا - سواء أ محافظين كانوا أم حداثيين- في تحسين المستوى الثقافي للطلبة، وإشباع نهمهم العلمي، وفتح أعينهم على ما تزخر به المعمورة من قيم فنية وروافد أدبية مختلفة. وكانت ظهر المهراز أيضا قلعة نضالية (أو دويْلة طوبوية) تستوعب مختلف الأطياف والتيارات السياسية المنضوية تحت لواء الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تطلعا إلى مغرب جديد يواكب مقاييس العصر بقطع دابر أساليب التعسف والاستبداد، وتوفير ما يحتاجه المواطن من دعة واطمئنان ورغد العيش، وتبني قيم جمالية وفكرية مناهضة للتقليد والمحافظة.

وكان من ثمار هذا الجو الثقافي والفكري، بروز طاقات أدبية في صفوف الطلبة المشهود لهم بموهبتهم التي تطورت مع توالي السنين إلى أن أفرزت نخبة ثقافية حداثية. كان لها دور أساس في إرساء مفهوم جديد للأدب، وفي إشاعة قيم جمالية وفنية جديدة، وفي حوز قصب السبق إلى الحداثة الثقافية على المستوى المغاربي. ظهر بينهم شعراء (محمد بنيس وعبد الله راجع ومحمد بنطلحة وأحمد بلبداوي وحماد)، وقاصون (أحمد المديني وعز الدين التازي وأحمد زيادي وأحمد بوزفور)، ومسرحيون (محمد الكغاط ومحمد تيمود وعبد الكريم برشيد)، ونقاد (إدريس الناقوري ونجيب العوفي وإبراهيم الخطيب وعبد القادر الشاوي)." باختصار تكونت- في ظهر المهراز تحديدا- بؤرة أدبية خصيبة ونواة ثقافية صلبة لما سيعرف خلال السبعينات بحركة الأدب الحديث بالمغرب التي ستصل أصداؤها إلى المشرق العربي عبر المنشورات، وتكون درسا للجيران المغاربيين الذين تأخر عندهم ظهور أدب عربي حديث جدير بهذا الاسم" ص46 .

وسرعان ما انشغل حماد بالنضال السياسي، وفاز بمقعد في التعاضدية لينوب عن الطلبة القادمين من منطقة الدار البيضاء. وأضحى الهم السياسي يطغى على اهتماماته

الأدبية، وحتم عليه أن يصرف وقته لتفقد أحزمة الفقر والمعامل المحيطة بظهر المهراز لفتح حوار مع المحتاجين والعمال والمومياومين وتوعيتهم وحفزهم على الانخراط في النضال المنظم لتغيير أوضاعهم المعيشية.

عانى الأمرين من السنة البيضاء إثر إغلاق المدرسة العليا للأساتذة في فاس بأمر سام، فرجع إلى البرادعة الحي القصديري في ضاحية مدينة المحمدية. شعر بالملل والقنوط، وغمره شعور قاهر بأنه في اللامكان لانعدام الوسائل الضرورية مقارنة مع حي الليدو المجاور للمركب الجامعي ظهر المهراز حيث تتوافر المكتبات والقاعات السينمائية التي تتيح له الترفيه على نفسه، والانفتاح على عوالم أخرى. كان يتغلب على مصاريف الحياة بفضل المبلغ المالي (المساهمة النضالية) الذي كان يتكفل صديقه الزيادي بجمعه من الرفاق؛ وهم- في معظمهم- من زبناء مقهى "مرحبا " الذين أبدوا تعاطفا كبيرا مع وضعه المزري. لم تدم الغضبة الملكية إلا أسابيع معدودات، ثم استأنفت الدراسة مما حفز حماد على بذل قصارى جهوده للحصول على شهادة التأهيل التربوي التي تخول له العمل أستاذا لإعالة أسرته الفقيرة، والتكفل بمعيشتها.

وفي عطلة من العطل التي اعتاد قضاءها في مهبط نبعته دمنات، تلقى رسالة من أحد رفاقه يقترح عليه الإسهام في تأسيس منظمة ماركسية لينينية مستقلة (إلى الأمام). وبعد أشهر انقسم الرفاق إلى مجموعتين بسبب اختلافهم في التصور السياسي والتنظيمي. تعاطف حماد مع هذه المجموعة الأولى لكون اختيارها هو الصائب لاعتبارات إيديولوجية وثقافية (بلورة خطة العمل السياسي المشترك مع التنظيمات الجماهيرية الطلابية والثقافية). وابتعد عن المجموعة الثانية الراديكالية التي تبنت العمل المسلح.

ومن بين المهمات النضالية التي قام بها، تفقد الثانويات بالمحمدية لإنشاء فروع النقابة الوطنية للتلاميذ، وإقناع عينة من الرفاق والأنصار للانخراط في التنظيم الحلوي السري، والسهر على تكوينهم، وشحذ هممهم، وحضهم على الانضباط لأداء دور المناضل الثوري الذي يضع نفسه في خدمة المثل العليا، ومناصرة القضايا العادلة، والوقوف إلى جانب الجماهير الكادحة لاستعادة حقها في العيش الكريم. وكان- علاوة على تأطيرهم سياسيا وإيديولوجيا- يحفزهم على صقل مواهبهم الأدبية، ويزودهم بالكتب والمجلات المفيدة، ويرشدهم إلى قراءة كتّاب بعينهم لتألقهم في مجالهم، و إشعاعهم الثقافي على المستوى العربي. وكانت تعليماته وإرشاداته تجد مكانها في قلوب الشباب لأنهم -من جهة- ينتمون إلى أسر فقيرة يعيلها أب كادح في مصنع أو مزرعة بالمحمدية، ولأنه – من جهة ثانية- كان يمثل بالنسبة إليهم مثالا يحتذى به لشخصيته الكاريزماتية والجذابة.

كان حماد في عداد المدعوين للمؤتمر الخامس للاتحاد الوطني لطلبة المغرب، الذي نظم شهر يوليوز من عام 1972 بكلية العلوم المجاورة للقصر الملكي في الرباط. وفيما كانت أشغال المؤتمر تتوالى في طقس حار تناهت إلى سمع الحاضرين لعلعات العيار الناري على مقربة منهم. فتبين لهم أن الحادثة تتعلق بمحاولة ضباط عسكريين الانقلاب على الملك الحسن الثاني. انسحبت فصائل من المؤتمر بدعوى أن الجو المحتقن غير مناسب لإتمام أشغال المؤتمر. وهو ما أخلى السبيل للطلبة الجبهويين التقدميين لانتخاب هياكل المنظمة وإحكام سيطرتهم عليها. لكن سرعان ما طالتهم الاعتقالات في مختلف المدن المغربية؛ مما أدخل المنظمة في نفق مظلم إلى غاية المؤتمر السادس عشر في شهر غشت من عام 1979.

وبعد أن أضحى حماد أستاذا لمادة اللغة العربية في ثانوية بئر الجديد على مسافة 45 كلم جنوب الدار البيضاء بادر باقتناء المعدات اللازمة (الأثاث، التلفاز، الثلاجة)،

وسيارة قديمة من نوع رونو 12، وشراء شقة يتقاسمها معه أفراد أسرته. ولم يجرفه النضال عن مواصلة نظم الشعر بحماسة منقطعة النظير، وبوعي وفعالية جديدين تطلعا إلى تطوير القصيدة العربية الحديثة. "كان يعتقد بأنه لا بد للشعر أن يحترم جدلية الواقع، وأن يكون معبرا عن وعي صحيح بالقضايا الأساسية للإنسان" ص228.

اكتفى السارد باستحضار ما يعرفه عن حياة حماد بالاعتماد على الوقائع التي جمعتهما أو عاينها عن كثب. ومع ذلك ظلت أشياء كثيرة محفوفة بالأسرار أو غامضة، لأن حماد كان يؤثر الصمت والكتمان على الصخب والثرثرة لا يتكلم كثيرا، ولا يبوح بأسراره. " دائما منذ أن وعى حماد نفسه، كان صخرة صمت.. كان غيره دائما يتكلم.. حماد لا يجيد الكلام لكنه يجيد الصمت" ص204. وهو يراجع الرسائل التي سبق أن توصل بها منه، وما فتئ يحتفظ بها، تأكد أن جثة حماد معاندة لا تصدع بأسرارها وإن خضعت للمعاينة والتشريح. فهو أرض قاحلة وممحلة أو بئر جافة مقطوعة عن مياه ترويها وتعيد الحياة إليها. ما يصدر عن جثته الهامدة هي " أحزانه على قربان الإنسانية المعذبة" ص202. وهذا بالذات ما حفزه -بحكم انتمائه الاجتماعي وتكوينه الثقافي والسياسي-على أن يكون ضميرا جمعيا للبشرية التي ترزح تحت وطأة الاستعباد والفقر، وتناضل من أجل أفق مغاير يعيد إليها كرامتها في العيش.

عجز السارد عن استنطاقه وتكليمه مع العلم أنه يعرف مسبقا أنه يتعثر ويرتج في كلامه، وأن اللغة لا تطاوعه في نقل أحاسيسه ومعارفه إلى الآخرين. نبش جراحه فاندملت وتكاثرت آلامها، وهو ما دفعه إلى الحدب والرفق عليه عوض أن يعذبه أكثر مما يتحمل. يكفيه العذاب الذي جناه من حياته، وأذاقه مرارة الحنظل، وأحال دون أن ينعم برغد العيش الموعود، ويحقق جزءا من أحلامه الهاربة.

أراد السارد- باستعادة روح المرحوم- أن يتخلص من ثقل يؤرق حياته، ومن دين يثقل كاهله، ومن كابوس ينغص عيشه. لم يسغ أن يغادر حماد الحياة بطريقة تراجيدية وهو على مشارف العقد الثالث من عمره، وأن يرحل مبكرا بطريقة مفاجئة بسبب حادثة سير غادرة على ضفاف مدينة المحمدية في ليلة عيد الأضحى دون أن يمهله الوقت ليتأكد من سراب الشعارات الطنانة التي دافع عنها بصحبة رفاقه، وأدى ثمنها غاليا كثير منهم، ويعاين استقواء التيار المحافظ واندثار كثير من الأحلام التي راهن عليها اليسار حرصا على تحقيق مجتمع لاطبقي ومنصف ومُنَعَّم.

حاول السارد أن يسترجع الرسائل التي سبق له أن بعثها إلى حماد ما بين عامي 1974 و1976 مستعينا بخدمات أخيه، لكنه رجع بخف حنين لأنه عبث بتركة حماد وممتلكاته وأضاعها. كان بوسع الوثائق الشخصية أن تضيء كثيرا من الجوانب الداجية في حياة حماد، وتكشف عن المستور، وعن طبيعة العلاقة التي توطدت بينه وبين السارد على وجه الخصوص. اعتمد السارد على ذاكرته في استجماع المعلومات والأخبار عن حماد. وأقر بعجزه لأن حماد أبى إلا أن يضرب هالة من الغموض على نفسه وحياته. ذهب إلى المجهول الأثير على نفسه، تاركا ما عاشه خلال ثماني وعشرين سنة في خضم المجهول الذي يغشاه بظلمة فائقة. وهو ما صعب مأمورية استيفاء سيرته حقها، والإحاطة بها من جميع الجوانب. وإن أبان السارد في أكثر من مناسبة عن جدارته في إعطاء أي مترجم له ما يستحق من عناية بسبر أغوارها، ونبش أسرارها. يمكن أن تلخص حياة حماد في كونه عاش ظروفا قاسية، وآثر أن يغادر الحياة بقساوة مبالغ فيها، ودون مقدمات تاركا أصدقاءه في ذهول وحيرة من أمرهم.

3- الشِّلة:

كانت تتكون من ثلاثة أعضاء رسميين علاوة على رابعهم حماد. ويلتحق بهم في أثناء العطل، الأعضاء الموسميون الذين يعملون في مدن أخرى أو يزورون أحد أفراد عائلاتهم بالمحمدية. وتتكون الشلة الرسمية من ساجد موظف بسيط في مندوبية وزارة الشبيبة والرياضة، يمارس الفن التشكيلي والغناء في العلب الليلية، وأوليفيي (المعروف بالزيتوني عند أصدقائه) ذو الأصول الفرنسية، انقطع عن الدراسة، واندمج في الشلة مقدما خدمات منتظمة بالتنقل ليلا على دراجته النارية إلى شمال المغرب للتزود بالمخدرات، والمكي الأمازيغي الذي كانت مهمته هو اقتناء السجائر المهربة والزجاجات الكحولية من الميناء. كان حماد شاعر الحرية والالتزام يستدعيهم إلى بيته -الذي يتقاسمه مع أسرته بعد مغادرتها الحي القصديري- للسهر والترفيه على أنفسهم وتبادل الأخبار والآراء. وكان النقاش يحتد أحيانا بينهم بسبب اختلاف مشاربهم، وتباين وجهات نظرهم من مختلف القضايا السياسية والثقافية الراهنة. لم يكن بمقدور المكي- بحكم مستواه التعليمي- أن يساير ويجاري النقاش، ولذا كان يلوذ بالصمت أو يحرص - بالمقابل- على مهاراته في العمل اليدوي بإعداد طاجين للعشاء أو القيام بأعباء التنظيف.

ومن بين الأعضاء الموسميين السارد معلم اللغة الفرنسية في تازروالت بين تزنيت وتافراوت، وماصو أستاذ اللغة الفرنسية يعمل مع حماد في الثانوية نفسها، والأستاذ الفاتحي زميل حماد في المدرسة العليا للأساتذة يحل صيفا لزيارة أخته المتزوجة بمنقطة العالية (المحمدية)، والحاج الزيادي الذي يصعب أن يصنف في عداد الرسميين أو الموسميين انغماسه في إعالة أسرته، والاستجابة لمتطلباتها وحاجياتها. " ومن الطبيعي أن مثل هذه المسؤولية الجسيمة قد أبعدته عن الشلة، وصار يتخلف عن كثير من تجمعاتها اللهم تلك التي

تتناسب مع برنامجه اليومي أو تضطره إلى إثبات حضوره لأمر من الأمور أو لحاجة من الحاجات" ص119.

اعتاد الأصدقاء الأربعة أن يلتئموا في مقهى "مرحبا" للتنسيق والتشاور فيما بينهم، وتبادل وجهات نظرهم من قضايا الساعة، و يقصدوا كل مساء بيت حماد للسهر والسمر. لا شيء يجمعهم إلا شرب الخمر والتدخين وسماع أغاني المجموعات الغنائية المغربية على وجه الخصوص. أما من حيث الأفكار والأمزجة، فكان كل واحد منهم يسبح في بحره الخاص، أو يختلي في جزيرته النائية.فضلا عن ذلك لم تكن لهم لغة مشتركة، ومع ذلك كانوا يتفاهمون ويتواصلون فيما بينهم. يتحدث حماد اللغة العربية الفصيحة بحكم تكوينه المعرب، ويتواصل أوليفيي باللغة الفرنسية، ويتحدث أحيانا بلغة عربية متلكئة مستخدما الألفاظ الضرورية للتواصل اليومي. ويتقن المكي اللغة الأمازيغية، ويجد صعوبة جمة في التحدث بالعامية المغربية. ويتواصل ساجد بالعامية المغربية أو باللغات الأجنبية التي كان يستخدمها في أداء أغاني البوب الشهيرة. " وبحكم هذا الواقع اللساني المتعدد.. كما يقول علماء اللغة.. فإن فرص التواصل بين الأشخاص الأربعة لم تكن تتجاوز الحد الأدنى.. أي عمليا وبالملموس أمور التدخين والشراب والسهر" ص121.

كانت الشلة تعمل بانتظام بفضل مهارة كل عضو منها، وبحرص كل واحد منهم على أداء دوره كما ينبغي حتى لا تتعطل آلتها وتتوقف. هناك من يرفه على أعضائها بأغاني البوب (ساجد)، ومن يزودهم بالمخدرات والسجائر المهربة والخمر (أوليفيي والمكي)، ومن يتبرع عليهم بتمر زاكورة الطازج، ويمتعهم برائق بلاغته وفائق حجاجه (الفاتحي)، ومن يتكلف بالتنظيف والسخرة (المكي)، ومن يتفنن في الطبخ (الزيادي)، ومن يبرع في التفكه والسخرية (ماصو).

كان حماد هو عماد الشلة، بل قائدها الرمزي وراعيها بحرصه على لم شملها، والحفاظ على توازنها، وتنظيم لقاءاتها وبرمجة فقرات سمرها (ترديد أغاني مجموعات ناس الغيوان وجيل جلالة والمشاهب، ثم مصاحبة المغني الملتزم الشيخ إمام أو قعبور أو الهادي كله، ثم الاستماع إلى المجموعات الغربية (إيكلز، بيتلز، رولينغ ستون) أو الأغاني الشعبية المغربية (العيطة الحوزية والعيطة الحصباوية). وتتخلل السهرة نقاشات حادة بين أعضاء الشلة لاختلاف مشاربها وحساسيتها السياسية. وكان حماد- في هذا الجو الصاخب- يعرف كيف يدير النقاش لتجنب المشاحنات والاستفزازات التي يمكن أن تعكر صفوة السهرة، ويحسن الإصغاء إلى الجميع، ويستغل الفرص المناسبة لتمرير أفكاره وتوجهاته السياسية لعلها تستميل عقولهم، وتداري نزق شبابهم.

4-المحكي الذاتي:

يتقاطع السجلان السيري والسيرذاتي في سبيكة واحدة. اضطر السارد- بحكم علاقته الوطيدة بحماد- إلى استحضار التجارب التي تقاسمها معه، وتحيين المشاعر التي انتابتهما وهما يواجهان صروف الدهر سعيا إلى إثبات الذات من جهة، والحصول على وظيفة لإعالة أسرتيهما الفقيرتين. خصص السارد- في مواكبة اللحظات القوية في حياة حماد- حيزا من السرد للتحدث عن ذاته مبرزا فضل حماد على أنداده، ومثنيا على إرشاداته ونصائحه بحفزهم على المثابرة والاجتهاد، و تحسين ملكاتهم ومواهبهم الأدبية، وإقناعهم بالانخراط في العمل السياسي، والانتماء إلى اليسار المتطرف ذي المرجعية الماركسية-اللينينية.

عُين السارد معلما للغة الفرنسية بقرية تزروالت بعد أن اجتاز مباراة ولوج مدرسة المعلمين بتوجيه من الزيادي، وقضى سنة من التمرن على الطرائق البيداغوجية والتربوية التي تتناسب وفئة المتعلمين المستهدفة. وكان قبل هذه الفترة قد غادر الدراسة عند بداية السلك

الثاني ليتفرغ للعمل في معمل الأسلاك الكهربائية حرصا على مساعدة أسرته المحتاجة. نصحه حماد أن يزاوج بين التدريس والترشح للحصول على شهادة الباكلوريا التي ستفتح له آفاقا لمواصلة دراساته الجامعية. " وقد شجعه حماد وكان حاضرا يقرأ جريدته على السير في هذا الطريق الذي يجعله كما قال يضرب عصفورين بحجر واحد هما العمل النافع للأسرة ومواصلة الدراسة لبناء المستقبل" ص116.

كان حماد يداوم على قراءة باكورة إنتاجات السارد مثنيا على جهوده، ومنوها بموهبته، ومرشدا إياه إلى قراءة الشعراء المعاصرين المتألقين (بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور) والأكثر ارتباطا بالحداثة (محمود درويش، وسعدي يوسف، وعزالدين المناصرة) والقاصين المنتسبين إلى الحساسية الجديدة (يحيى طاهر، وبهاء طاهر، ومحمد مستجاب).

حكى السارد عن تجربته القاسية في قرية نائية ومهمشة جنوب المغرب، مبينا ما قاساه من حرارة الجو وتقلبه، وندرة الماء الشروب، وكثرة الحشرات المضرة، وعناء النأي عن أسرته وشلته بالمحمدية، وخاصة عن صديقه الحميم وملهمه وراعيه حماد. قضى أياما عصيبة وهو يتألم من الفقدان المريع الذي لا يضاهي حدته وسورته أي شعور إنساني. كان طيف حماد لا يبارحه في يقظته وفي منامه. لازمه إلى حد توجسه بالوسواس القهري؛ مما دفعه إلى عرض حالته الصحية على طبيب لعله يصف له الدواء الناجع لاسترجاع توازنه في الحياة، والتخلص من هوس الموت الذي كدر عيشه، وقض مضجعه.

لا تحضر المرأة إلا لماما في تجربة حماد لطهرانيته النضالية ولخيبة أمله مع حبيبته التي آثرت الاشتغال مع أحد الأمراء أو أحد أعدائه الطبقيين. وبالمقابل، كان يشجع السارد على الانغمار في لجة الحب الأول للقطع مع ضروب الحرمان والكبت والشوق التي

طبعت مراهقته. ومما ردده على سمعه قوله: "هذا حبك الأقوى العائد إليك فعض عليه بالنواجذ ولا تدعهم يغتصبون سعادته العذراء" ص171. منح له وقتئذ خمسين درهما لمرافقة حبيبته دنيا إلى الدر البيضاء، ومشاهدة فيلم " حمى ليلة السبت" في سينما لوتيسيا (أو لوتيتيا كما اعتاد الناس نطقها). كانت السينما -وقتئذ- تتيح للعشاق -مع بداية الفيلم وانطفاء الأضواء- فرصا مناسبة لاكتشاف القبلات واللسمات المحمومة الأولى.

فيما يلي بعض الآفاق التي يفتحها العمل:

1-يبحث القراء - في تعاملهم مع النص الأدبي- عن المحور الهرمنطقي المناسب ليضعوا فيه المؤشر،"وخاصة العابرين منهم حسب جيروم دافيد سالينجر (J.D Salinger) الذين اعتادوا على تثبيته في طرفي نقيض المحور. وفي هذا الصدد ترى دوريت كوهن أن المنطقة الوسطى تُمثل برواية بحثا عن الزمن الضائع"(4). تحفز "عودة المرحوم" شريحة من القراء على وضع المؤشر في أقصى المحور باعتباره رواية. وما يعزز تخمينهم، هو تحدث السارد عن الشخصية الرئيسة باسم مستعار (حماد)، دون دعم مساره الشخصي بالوثائق اللازمة. في حين يثبت القارئ المطلع المؤشر في أقصى نقطة من الطرف النقيض بدعوى أن السارد يضطلع بسرد سيرة شخصية واقعية تقاسم معها فترة من حياتها قبل أن تغادر الحياة- برفقة ساجد- بسبب حادثة سير مفجعة وهي على مشارف العقد الثالث من عمرها.

2- يعتمد القارئ المطلع على جملة من المؤشرات التي تجلي صحة المعلومات عن المترجم له و مطابقتها للواقع. فعلاوة على استرجاع السارد تجربته إبان ميعة المراهقة والشباب، يستعيد أيضا شريط حماد مركزا على الانعطافات الحاسمة في حياته. كان يكتب ويعرف باسم مستعار وهو حماد، أما اسمه الحقيقي الذي لم يصرح به السارد، فهو محمد السبايلي، الذي كان من طلائع الشعراء الشباب الذين سعوا إلى تجديد القصيدة العربية مستلهمين

التجارب التجديدية الرائدة في العالم العربي، وخلف ديوانا شعرية موسوما ب" بحر الضياع". ومما حفز السارد على استحضار ضيفه ومحاورته، ومنح تجربته في الحياة معنى، هو بيان فضله عليه، وقيمته الرمزية في عداد الشعراء الشباب، والتنويه بمؤهلاته الأدبية وخصاله الأخلاقية.

3- بوضع المؤشر في أقصى المحور، يتوطد الوقائعي على حساب التخييلي. فكل ما يذكره السارد يتسم بأثر الواقع، ويحيل إلى فترة زمنية صاخبة بشعاراتها الجذرية بحثا عن المجتمع البديل. وقد أدت الصرامة في انتقاء الوقائع وتحبيكها إلى انحسار مسحات التخييل، وإلى تقلص الدائرة الخاصة أو الحميمية، وإلى إيلاء الاهتمام بالحياة العامة. ومن علامات التخييل أو الاستهواء استحضار السارد علاقته بحبيبته دنيا، وتبني والدة حماد طفلا لقيطا تخلت عنه أمه في الفندق. وعندما بلغ عثمان الخامسة عشرة من عمره آثرت دنيا أن تتبناه برفقة زوجها الفرنسي، وتغير اسمه إلى مولاي زيدان ساليزو. كانت هذه الشوارد والطرف بمنزلة الملح الذي يتبل به الطعام حتى تكون له نكهة خاصة.

1-حسن بحراوي، عودة المرحوم، منشورات دار أبي رقراق، ط1، 2019.

2- Dorrit Cohn, «Briser le code de la biographie fictionnelle : Sir Andrew Marbot de Wolfgang Hildesheimer ». Ibid., p 126.

3- عبد الله العروي، أوراق، المركز الثقافي العربي،ط1996،2. اتخذ عبد الله العروي للجيل الذي ينتمي إليه، شخصية إدريس . "

4- Arnaud Schmitt, Je Réel / je fictif au-delà d'une confusion postmoderne, Presses Universitaires du Mirail,2010,p68.